



## الجدّة والحفيّدة

— صورة مروشي - الجزائر —

قائلة: هذه الحافلة ستوصلك إلى الحي الذي تريدين.. مع السلامة. تمتت تشكرني بكلمات مبهمة. نزلت أنوي الذهاب إلى وجهتي، لكنني توقفت فجأة، فكرت قليلا، ثم عدت للمجوز: هل تعرفين بالضبط.. أين تسكن ابنتك؟

قالت متأكدة: طبعاً.. لقد تعودت المجيء إليها بين الحين والحين.

رغم جوابها المطمئن والواثق.. إلا أنني لا أدري لماذا لم أشعر بالاطمئنان، فاتخذت مجلساً بالقرب منها، وقلت مبتسمة: لا ضير أن أصعبك حتى تنزلي في المكان الذي تريدين ثم أنصرف، فلدي متسع من الوقت للذهاب إلى بعيتي.

انطلقت الحافلة تقطع شوارع المدينة الكبيرة وأزقتها وحاراتها، تتوقف في كل مرة في محطة لينزل أشخاص ويركب آخرون. بعد اختراق وسط المدينة، والمرور على العديد من المحطات، دخلنا الحي المذكور، وكان حياً كبيراً مترامياً الأطراف، يقع في الضواحي.

أخبرت المجوز بذلك، وطلبت منها أن تركز في النظر عساها تعرف المحطة التي تعودت النزول فيها. ففتحت عينها عن آخرهما وهي تنظر يمنة حيناً، ويسرة حيناً آخراً وفي كل مرة كنت ألتفت إليها وأومئ إليها: هل عرفت المكان؟

قالت وهي تنظر حولها مذعورة: نعم.. سألتها أحاول مساعدتها: إلى أين تذهبين؟ أجابت وهي لاتزال تحديق فيما حولها في ذهول: إلى ابنتي، هي تسكن في حي الزهور. قلت أشير إليها أن تتبعني: تعالي معي.

حملت حقيبة كبيرة بيدها، وحقيبة يد ممتلئة بيسراها، وبخطوات ثقيلة متعبة تبعني. كانت حافلات النقل الحضري مصطفة الواحدة وراء الأخرى، سألنا عن الحافلة التي تحمل المسافرين إلى حي الزهور، فوجدناها. ركبنا فيها، وبعد أن اعتدلت في جلستها ودعتها

ركبت الحافلة ذات صباح متوجهة إلى المدينة المجاورة، جلست بالقرب من مجوز تجاوزت السبعين من عمرها، بعد أن ابتسمت لها ابتسامة عريضة طمأنتها وهشت لها. لم يتبادل في المقعدين المتجاورين غير كلمات قليلة، فكل واحدة منا كانت تحاور نفسها، ولم تكن لإحدانا الرغبة في التحدث مع الآخرين.

وصلنا بعد بضع ساعات. ساعدت المجوز على النزول خوفاً من أن تسقط. قلت ونحن واقفتان في محطة جديدة فتحت أبوابها منذ أيام:

— أعتقد أن الأمور اختلطت عليك لأن الحافلة توقفت في محطة جديدة غير التي ألفتها.

أنها أنفتها، وخيبة مريرة في ذاكرة خانتها في لحظات عسيرة هي أحوج ما تكون إليها.

انتهت جولة الباص في حي الزهور، وعاد أدراجه من حيث أتى.

قلت للعجوز التي لم تتوقف عن النظر يمنة ويسرة: الباص عائد من حيث أتى، لقد انتهت جولته في حي الزهور، فماذا نفعل؟

أشارت بيدها: أن لا أدري! وعادوت النظر عبر النافذة يمنة حيناً، ويسرة حيناً آخر. عندما وصلت الحافلة وسط المدينة حملت عن العجوز متاعها، وقلت في رفق: لننزل هنا، وإلا عدنا إلى المحطة.

كانت الحرارة شديدة، والشمس حارقة، إنه شهر سبتمبر الذي أعلن بقدومه عن بداية فصل الخريف، لكن الصيف ظل متسلطاً يأبى أن يغادر حتى يحرقنا، ويخفق أنفاسنا.

تذكرها. قلت أسألها: متى زرت ابنتك آخر مرة؟

لم تعط تاريخاً محدداً، بل اكتفت بالقول: منذ مدة جئتها زائرة، ومكثت عندها بضعة أيام.

قفز إلى ذهني سؤال ذكي: هل جئت وحدك؟

- نعم.. أحياناً يصحبني أحد الأحفاد، وفي مرات قليلة يأتي معي واحد من أبنائي.

- ولماذا لم يصحبك أحد اليوم؟ كيف تخاطرين بالسفر وحدك؟

قالت دون اكتراث: أنا أعرف الطريق وقد تعودت المجيء.

- لكنك اليوم لم تعرفيه.

زمت شفيتها وعادت تحديق يمنة ويسرة متعجبة من تغير الزمان، وتطاول البنيان، ضاربة كفا بكفا.. تعبر نظرات عينيها التائهة عن شعور بالضياح في أماكن اعتقدت

فتومئ بدورها وشفتهاها مزمومتان: لا.. فأبتسم لها مطمئنة أنني معك فلا تبتئسي!..

قلت وقد أدركت أن أعراض الزهايمر قد بدأت تظهر عليها: هل من معلم أو علامة، أو أي شيء مميز يساعدك في معرفة مكان توقفك؟

أجابت مشدوهة وكأنها آتية من كوكب آخر: لا..

- هل معك هاتف جوال؟ لا..

- رقم مكتوب عندك فنتصل للاستعلام؟ لا..

تمتمت حائرة: لا حول ولا قوة إلا بالله!

قلت أحاول مساعدتها على التذكر: هل ابنتك تسكن في عمارة أم سكن خاص؟

أجابت دون تردد: بل في عمارة. همست فرحة: الحمد لله.. جواب يقيني!

ثم قلت لها: إذن ركزي على العمارات.. هل تذكرين لونها؟ شكلها؟ موقعها؟ شيئاً ما يقع بالقرب منها؟..

نظرت وأمعنت النظر، وركزت وشددت التركيز.. لا شيء.. لا تذكر شيئاً.. فالعمارات بالنسبة لها كثيرة متراسة، وتكاد تشبه بعضها بعضاً.

بدأ لي أنها لم تزر المكان منذ مدة طويلة، وازدياد المباني في مدة قصيرة قد يكون غير المعالم التي





أحضرت لها قارورة ماء من محل قريب، وبينما هي تشرب قلت لها: هل زوجك موجود؟

- مات منذ سنوات.

- والأولاد؟

- ولدان وابنتان، الولدان معلمان، متزوجان، ولديهما أولاد، أحدهما يسكن هنا.

- ولماذا لم يحضر بك بنفسه؟

- هو مشغول بزوجته وأولاده

ويعمله.

لم أعلق! فقد اعتدنا سماع هذه الأشياء، ولم تعد تحتاج إلى تعليق، أو تثير دهشتنا.

قلت: وابنك الآخر؟

- يسكن في البلدة التي جئنا

منها، قريبا مني.

- ومع من تسكنين؟

- وحدي..

لم تتوقف عند كلمة - وحدي

- أو أسفت لقولها، فكأنها من الأمور

البديهية المسلمة بها، وقد أصبحت

أغلب الأمهات بعد زواج أولادهن

يقمن وحدهن في أرذل العمر!

أكملت تقول:

- أما البنات فإحدهما متزوجة

في بلدة أخرى، أذهب لزيارتها بين

الحين والحين، والأخرى.. واختنق

صوتها وهي تقول: ماتت بالسرطان

تاركة أربعة أولاد، ثلاثة ذكور

وبنت هي في الرابعة الآن.. عندما

العمارات، ولا تكاد تختلف بعضها عن بعض. وإن أردنا أن نسأل لم نعرف كيف نسأل!.. وحتى لو سألنا عن الاسم العائلي لابنة العجوز- والحمد لله تذكرته - فلن يعرفه أحد، فسكان العمارة الواحدة قد لا يعرف بعضهم



بعضا، فكيف بعمارات متباعدة في حي يقع في ضواحي مدينة كبيرة؟ تعبت العجوز فجلسنا عند الظل نرتاح قليلا.

رغم تعبي الشديد ابتسمت لها وقلت أمازحها: سنجدها.. أطمئني، وستسين هذا اليوم سريعا، فقط لا تعيدي الكرة وتسافري وحدك!

قالت وهي تعجز عن الابتسامة من فرط خوفها وحيرتها: لن أعيدها.. أبدا..

انتظرنا الحافلة التالية، ركبناها عائدتين لحي الزهور.

قلت للعجوز أطمئنها: سنحاول مرة أخرى، ولن أتركك حتى أطمئن عليك. وفي أسوأ الحالات سأعيذك إلى بيتك، فلا تقلقي.

ابتسمت ابتسامة خائفة، وعادت

إلى النظر يمينه ويسرة بلا جدوى.. طلبت من السائق أن ينبهنا عندما يصل إلى حيث تبدأ العمارات. نزلنا ومشينا.. كانت خطواتها بطيئة، وأنفاسها لاهثة، ونظراتها زائفة، تنظر فلا ترى شيئا. كيف يمكن أن نجد شقة ابنتها في عمارة بين عشرات العمارات!..؟

كنت متعبة بدوري، وزاد في تعبي وضجري الشمس الحارقة كقطعة نار ملتهبة، ثم الحقيبة الثقيلة التي كادت تزهق روحي!.. كانت لا تكف عن شكري والاعتذار لي أن كبدتني هذا العناء.

وكنت أطمئنها بقولي: إنني أريد رضى ربي بفعلي هذا، فلا تكثرني لتعبي، فمالي والدنيا وهي دار تعب ومشقة وعناء، إنما أريد الآخرة.

أمسكت يدها بقوة كي تطمئن، ومشينا مسافة لا نعرف لنا وجهة بين العمارات الكثيرة، فهي حقا متشابهة، ولا علامات أو معالم نستدل بها، المحلات التجارية وعيادات الأطباء كثيرة في الطوابق الأرضية لتلك

ماتت أمها كانت في العام الأول من عمرها.

وشردت بعيداً.. جرح لم يلتئم، نكاته اللحظة بذكرها لها. سقطت دمة على خدها وهي تقول: ابنتي ماتت صغيرة.. في الثلاثين من عمرها.. الأب تزوج وأنجب طفلة، واليتامى مشردون عنده..!

نهضت كأنها تذكرت شيئاً، ومضت مسرعة تجدد بحثها، فنهضت وراءها أتبعها متعجبة كيف دب النشاط إليها فجأة؟! وبينما نحن نسير نمسح العرق المتصبب إذا بمحطة وقود السيارات بلونها الأصفر يبدو من بعيد، صرخت بمجرد أن رأتها: محطة البنزين.. ابنتي تسكن بالقرب من محطة البنزين هذه..

هتفت بدوري: ولماذا لم تذكرها منذ الصباح؟ هذه علامة واضحة ومعروفة من الجميع، ولو أخبرتي عنها لأوصلنا سائق الحافلة إليها.

ردت وهي تسرع الخطأ وقد بدأت تعرف المكان: نسيت يا بنتي، اعذريني..

ثم وهي تهرول قالت: سأشتري بعض العنب.

وكانت بقالة بالقرب من محطة البنزين. اشتريت منها عنباً ثم قالت: الآن عرفت المكان.. هذه هي العمارات، وهنا كانت توقفت الحافلة.

وتوقفت الحافلة في تلك اللحظة أمامنا.. كم كان الأمر سهلاً لو علمت بأمر محطة البنزين هذه..

قالت وهي تدخل ساحة بين عمارات محددة، وتمد يدها نحوي كي تحمل تلك الحقيبة الثقيلة: يمكنك الذهاب الآن و...

قاطعتها: أبداً.. لن أذهب حتى تدخل بي بيتك..

لم تعارض، وواصلت الدخول بين العمارات حتى وصلت عمارة بذاتها، دخلتها فإذا بامرأة تنتظرها عند باب أول شقة، سلمت عليها بحرارة قائلة: لقد قلقنا عليك.. لم تأخرت؟

أشارت إلي وهي تقول: لولا هذه الفتاة لما وصلت، لقد أضعت الطريق، ولم أستطع تذكر أي شيء.

دعنتني ربة البيت للدخول فدخلت. قالت العجوز- واسمها الحاجة فطيمة: إيمان هنا؟ أجابت المرأة: نعم.

سارعت الحاجة فطيمة إلى الغرفة فتبعتها، ورأيتها وهي تقبل على الطفلة إيمان ذات الأربع سنوات تقبلها وتشمها وتضمها في شوق ولهفة وحب تود لو تفتح قلبها وتخبئها فيه.

قالت وهي لا تزال تضمها والحفيدة ملتصقة بها تكاد تشق ثوبها وتدخل صدرها فتحتمي بقلب الجدة العجوز: من أجل هذه اليتيمة خاطرت بالسفر وحدي، وتكبت كل ذلك العناء..

وأردفت تقول بصوت تخنقه العبرات: رأيتها في المنام تتاديني.. جدتي.. جدتي.. فكيف لا أهرع إليها..

وبكت.. وبكت لبكائها بكاء لم أبكه منذ مدة طويلة. فقد استدر الموقف المذهل دموعاً غزيرة حتى قلت: لييتها توقفت! لكنها تزداد غزارة كلما رغبت في إيقافها، فتركت نفسي على سجيته وأنا أقول في سري: كم في العالم من أحزان وآلام تنفطر لها القلوب! وسبحانه الذي يعلم خبايا كل نفس وهمومها وآلامها.

علمت فيما بعد أن الابنة التي جاءت العجوز تزورها ليست ابنتها، بل ابنة زوجها المتوفى، وأن الأيتام يعيشون بالقرب منها مع أبيهم وزوجته حياة مزرية من الفقر وسوء المعاملة، وأن الجدة قلبها معلق بالحفيدة الصغيرة فهي تجتهد لزيارتها حتى لو خاطرت بالسفر وحدها.

بعد أيام ذهبت لزيارة الجدة في بيتها، فقد وعدتها بذلك. عندما دخلت وجدت الحفيدة في حضنها. لم تطق البعد عنها فأحضرتها تربيها، وتلاً وحدثها، وتشم رائحة ابنتها المتوفاة فيها. لقد اجتمعت الجدة والحفيدة في مكان واحد، ولم تعد بحاجة إلى المخاطرة كي تراها وتطمئن عليها. ■